الفصل الثاني

قلب دافئ.. ورأس بارد.. ويدان نظيفتان

حقق فلاديمير بوتين حلمه بالانضمام إلى الـ(كي جي بي) في صيف عام 1975م، لكنه لم يصبح عميلًا سريًّا مثلما كان يتخيل في طفولته، فقد كان تجنيده روتينيًّا، وبصرف النظر عن سوء الفهم الهزلي الذي وقع عندما قابل في ذلك الربيع لجنة التوظيف الجامعي التي تعين الخريجين وفقًا لمؤهلاتهم المهنية في النظام السوفييتي، فقد أعلن مسؤول في قسم القانون في الجامعة أن عليه الالتحاق بمحكمة لينينجراد، عندها تدخل ضابط الـ(كي جي بي) الذي كان يرصد التعيينات في ركن من الغرفة: «أوه، لا. هذه المسألة سبق لها أن حسمت»، قال الضابط[1].

لم يكن حتى فلاديمير نفسه يعرف مهمته، لكنه كان في منتهى السعادة، وقال لصديق طفولته، فيكتور بوريسنكو: «دعنا نذهب»، وكان قد اصطحبه معه في سيارته. وكان واضحًا لبوريسنكو أن ثمة شيئًا مهمًّا، ولكن فلاديمير لن يلمح حتى ولو بإشارة إلى ما قد حدث. ذهبا إلى مطعم جورجي بالقرب من كاتدرائية كازان، المَعْلَمِ ذي الأعمدة الممتدة على شارع نيفسكي بروسبكت، وهناك أكلا الدجاج بصلصة الجوز، وكانت مفاجأة لبوريسنكو؛ فصديقه لم يسمح له من قبل بالانغماس في شرب بيكات قليلة من المسكرات المحلاة[2]، ولم يعلم إلا في وقت لاحق أنهما كانا يحتفلان بقبول صديقه في الـ(كي جي بي).

وفي الوقت الذي التحق فيه فلاديمير بالـ(كي جي بي) كانت قد نمت لتصبح بيروقراطية هائلة، فلم تعد تشرف على المسائل الاستخباراتية الداخلية والخارجية فحسب، وإنما على مكافحة التجسس في الداخل والخارج، ومكافحة التجسس العسكرية، وضبط الحدود والجمارك، والحماية الجسدية للقيادة السياسية والمرافق الحكومية مثل المواقع النووية في البلاد. وكان لها مديريات تشرف على الاتصالات والتشفير، وترصد المكالمات الهاتفية، وكانت المديرية السادسة فيها ترصد (الأمن الاقتصادي) من خلال ضبط المضاربات وتصريف العملات، وغيرها من علامات نشاط السوق الحرة والمنحرفين. أما المديرية الخامسة، التي أنشئت في عام 1969م، فمهمتها (حماية الدستور)، وفرض الولاء الحزبي، ومضايقة المعارضين في جميع مناحي الحياة.

كانت الـ(كي جي بي) أكثر من مجرد وكالة الأمن؛ كانت دولة داخل الدولة، تبحث عن أعداء دائمًا، سواء وجدوا أم لم يوجدوا، فهي تخدم ظاهريًّا مصالح الحزب الشيوعي، وتتصرف بناء على أوامره، ولكن سلطاتها الواسعة كانت تمثل رقابة على سلطة الحزب[3].

ذهب فلاديمير للعمل في الأمانة العامة للمديرية، مكتب شؤون الموظفين في مقر الـ(كي جي بي) في لينينجراد، الذي يضم في المبنى نفسه في شارع لايتيني بروسبكت الذي زاره أول مرة عندما كان مراهقًا، ولكنه ليس يوهان فايس الذي اخترق صفوف قوة أجنبية. كان الاتحاد السوفييتي يعيش مرحلة من السلام النسبي، ولم يكن في ذلك الوقت في حالة حرب إلا مع نفسه، ومن ثم فقد كان بوتين أحدَ الموظفين المبتدئين، في الثالثة والعشرين من عمره، يدفع بأوراق ويعالج أخرى في العمل، ولا يزال يعيش في المنزل مع والديه دون غرفة خاصة به. وفي عمله كان له مكتب بسيط، مع المحاربين القدامى الصلع من أيام ستالين الذين بلغوا من العمر ما يكفي لأن يتذكروا معسكرات العمل (الغولاغ)، إن لم يتذكروا أيام الرعب من عام 1937م. ادعى هذا الوكيل الشاب ضرورة مراجعة الطرائق القديمة في العمل، لكنه لم يتمرد على الـ(كي جي بي)، وبالتأكيد ليس بطريقة يمكن أن تقوض مسيرته في مهدها وقبل أن تبدأ، كما يقول المثل: «يخرج أذنيه»[4].

بعد مباشرته العمل في المكتب، حضر دورة تدريبية للضباط في الكلية رقم 401 في لينينجراد، وهي واحدة من الأكاديميات التدريبية الإقليمية في الـ(كي جي بي)، تقع داخل مبنى مكوَّن من ستة طوابق، وله حراسة مشددة عند التقاء نهر أوختا بنهر نيفا، وكانت الأكاديمية أشبه بـ(الغواصة) التي تزخر بالطلاب العسكريين المنشغلين في الفصول الدراسية والتدريب البدني، والمنقطعين تمامًا عن بقية المجتمع[5]. وخلال ستة أشهر تعلم تكتيكات المخابرات الأساسية، ومن ضمنها أساليب التحقيق.

كانت جميع فروع جهاز الـ(كي جي بي) وأفرادها تحت إمرة يوري أندروبوف، الذي تولى منصب رئيس مجلس إدارتها، من عام 1967م حتى عام 1982م، حين أصبح القائدَ الأعلى للاتحاد السوفييتي، وقد بات أحد الأبطال الذين يعتز بهم فلاديمير، وهو الزعيم البعيد، المبجَّل.

فهِم أندروبوف ماهية النظام السوفييتي، وسعى إلى تحديثه حتى يتمكن من اللحاق بالغرب، خصوصًا في الشؤون الاقتصادية، وسعت الـ(كي جي بي) (KGB) إلى تجنيد كل من له علم بالاقتصاد الكلي، والتجارة، والعلاقات الدولية، ويبدو أن فلاديمير توقع هذا في أثناء دراسته في جامعة لينينجراد، إذ كتب أطروحة حول المبدأ الأولى بالاهتمام في التجارة الدولية[6]. إضافة إلى ذلك أراد أندروبوف أن يحول الـ (كي جي بي) إلى فريق نخبة، وكان فلاديمير مؤمنًا بذلك، فقد مثَّل الجيل الجديد في الـ(كي جي بي)، وجيل ما بعد ستالين من المجندين الذين يُعتقد أنهم من ذوي الأدلجة الضعيفة، وفي سنٍّ صغيرة بحيث لا يمكن أن يتذكروا أهوال نظام ستالين.

كان يُنظر إلى أندروبوف، في السياق السوفييتي، على أنه مصلح، على الرغم من تورطه في القمع في الداخل والخارج، فقد كان سفيرًا للاتحاد السوفييتي في بودابست خلال الانتفاضة المجرية في عام 1956م، وكان يسكنه رعب من اندلاع العنف السريع الذي يمكن أن يهدد حكم الحزب الواحد، وظلت تلك الأفكار تلازمه في السنوات الأخيرة من حياته؛

فقد «شاهد- برعب- من نوافذ سفارته ضبَّاطًا من جهاز الأمن المجري المكروه علِّقوا على أعمدة الكهرباء»[7]، وهذه (العقدة المجرية) هي التي خلقت الاعتقاد لدى أندروبوف بأن القوة التي تدار بحكمة هي الوحيدة التي يمكن أن تضمن بقاء الدولة السوفييتية والإمبراطورية.

وهكذا فإن أندروبوف في الوقت الذي أراد فيه تحديث النظام السوفييتي، وقف بكل قسوة ضد معارضيه، وهو من أنشأ المديرية الخامسة سيئة السمعة لمكافحة المعارضة الأيديولوجية، التي أدت إلى الاضطهاد الجسدي لأندريه ساخاروف، والمؤلف والكاتب ألكسندر سولجينتسين، وهو أيضًا من أوجد شبكة من المستشفيات النفسية في عام 1969م، لاضطهاد المنشقين عن الدولة وتصنيف معارضيها على أنهم يعانون مرضًا عقليًّا.

فلاديمير الذي تمسك بقوة بالدعاية الرسمية أو كان يعيش حالة اللامبالاة، كان يسوِّغ عمل الـ(كي جي بي) ويسبغ عليه طابعًا رومانسيًّا؛ فهو يعتقد أن ضابط المخابرات هو المدافع عن القانون والنظام.

في صيف عام 1976م تخرج في أكاديمية الـ(كي جي بي) ملازمًا أول، ولم يرجع إلى قسم شؤون الموظفين، بل عمل بدلًا من ذلك في قسم مكافحة التجسس، في المديرية الثانية في الـ(كي جي بي)، وشارك في العمليات التي لا تستهدف العدو في الخارج، وإنما العدو في الداخل. وأصبح المنضبط الذي يسعى- قبل كل شيء- للحفاظ على النظام الاجتماعي والسيطرة السياسية، على الرغم من معرفة القليل عن نشاطاته في ذلك الوقت. لم يعرف أصدقاؤه، ولا زملاؤه، ما الذي يفعله بالضبط، وظل سنوات طويلة يحتفظ بتفاصيل عمله السري، وقد صرَّح الضابط الذي عمل معه في وقت لاحق، أن فلاديمير عمل في المديرية الرئيسة الخامسة، لكن يصعب على المرء التيقن من ذلك[8]، وعلى الرغم من أن فلاديمير ينكر ذلك، فإن زميله يعتقد أنه كان على دراية وثيقة بتكتيكات الـ (كي جي بي) التي طبقت ضد منتقدي السلطة السوفييتية، ومن بينهم سولجينتسين، وفي وقت لاحق ساخاروف، مع أن

فيكتور شيركيسوف، أحد المقربين منه في لينينجراد، قد تلوثت سمعته لعمله في المديرية الرئيسة الخامسة ضد المنشقين عن النظام، ومن بينهم المتدينون[9].

لم يشعر بوتين بأي ندم أو تحفظ على اعتماد الـ (كي جي بي) على المخبرين أو المتعاونين، على الرغم من أنها زرعت نوعًا من انعدام الثقة في المجتمع السوفييتي؛ فهو يعتقد أن التواطؤ مع دولة بوليسية مرعبة ليس خطأ، وإنما ضرورة للحفاظ على النظام. وادعى ذات مرة أن تسعين في المئة من المعلومات الاستخباراتية لـ (كي جي بي) مستمدة من المواطنين السوفييت العاديين عن طيب خاطر، أو بإبلاغ بعضهم عن بعض؛ عن زملاء العمل، وعن أصدقائهم، وعن أقاربهم، وأضاف: «أنت لا تستطيع أن تفعل أي شيء دون عملاء سريين»[10].

من الواضح أن فلاديمير كان يجمع العملاء ويوجههم خلال المدة التي قضاها في مكافحة التجسس في لينينجراد، وخاصة رجال الأعمال والصحفيين والرياضيين الذين سافروا إلى الخارج، أو اجتمعوا مع الزوار الأجانب. ومع أن نشاطاته بقيت محاطة بالسرية حتى الآن، فإنه أصبح أقرب إلى (الشرطي) الذي حذره منه مدربه إن التحق بكلية الحقوق. كان يعيش حياة مزدوجة، لكنها أقل مأساوية وخطورة من تلك التي في الدرع والسيف، وأقام الصداقات مع رجال عملوا معه في الظل، واستمر على ذلك طوال سنوات قادمة، وكان منهم: فيكتور شيركيسوف، ألكسندر بورتنيكوف، فيكتور إيفانوف، سيرجي إيفانوف، ونيكولاي باتروشيف. في هذه الدائرة المغلقة من الأصدقاء- وجميعهم من الرجال- أقام صداقة حميمة مع الضباط المقربين الذين يشاطرونه التفكير ذاته، وهو ما عزز نظرته الصارخة البيضاء أو السوداء إلى هذا العالم.

بعد ستة أشهر في مكافحة التجسس، نُقل فلاديمير إلى المديرية الرئيسة الأولى في الـ(كي جي بي)، المسؤولة عن العمليات الاستخبارية خارج حدود الاتحاد السوفييتي، التي كانت تعد فرع النخبة في الـ(كي جي بي)، ومن أصل ما يقارب ثلاث مئة ألف من العاملين

في الأجهزة الأمنية، خدم ما يقارب خمسة آلاف في هذا القسم[11]. ما من شك في أن دراسته الألمانية ساعدته على تبوئه هذا المنصب، ومكنته الـ(كي جي بي) من مواصلة دراسته ساعتين في اليوم، ثلاث مرات في الأسبوع[12]، ومع ذلك لم يصبح جاسوسًا، ولم يذهب إلى الخارج، بل بقي في البيت الكبير في لايتيني بروسبكت، يتعقب الزوار والدبلوماسيين الأجانب العاملين في قنصليات المدينة. وكان كثيرٌ من العمل تحليليًّا، يتطلب العمل الشاق، ولما كانت لينينجراد ثاني مدينة في الاتحاد السوفييتي، فإنها لم تكن مدينة معزولة، لكنها تفتقر إلى مكائد العباءة والخنجر التي تلف العاصمة موسكو.

بدأ جهاز (كي جي بي) نفسه يعاني التضخم والتصلب، وهذا التضخم في صفوفه نتج عنه انخفاض الكفاءة، وبالنسبة إلى عديد من العملاء، تحول الحماس الشبابي عندهم للعمل في عالم التجسس إلى ملل وجمود بيروقراطي، فقد كتب المعاصر يوري شفيتس عن هذا العصر: «فقط في الخيال يمكن أن يتحدى رجل واحد العالم كله»[13].

بدا فلاديمير راضيًا أن يبقى كادحًا في الرتب الدنيا، على الرغم من وصف أحد رؤسائه له بأنه دقيق في عمله[14]، ولم يبد أي طموح إلى الصعود إلى القيادة من خلال المنظمة. وبعد أن تقاعد والده من مصنع القطارات في عام 1977م، ونتيجة لكونه من قدامى المحاربين المعوقين، فقد تسلَّم شقة صغيرة بغرفتي نوم، بمساحة لا تصل إلى ثلاث مئة قدم مربعة، في ستاتشك بروسبكت في آفتوفو، الحي الذي أعيد بناؤه حديثًا إلى الجنوب من المنطقة التاريخية للينينجراد. وكانت أزمة السكن التي نشأت بعد الحرب في هذه المدينة قد دفعت عديدًا من الأسر إلى أن تظل تعيش في مساكن مشتركة، وحتى ضباط المخابرات لم يتأهلوا تلقائيًّا للحصول على شقة، ولكن اليوم، وقد بلغ فلاديمير الخامسة والعشرين، أصبح له للمرة الأولى في حياته غرفة نوم خاصة، و(ركن صغير) خاص به، كما كانت تسميه فيرا جورفيتش.

كان يتجول- في أوقات فراغه الوفيرة- في كل أنحاء المدينة، بالسيارة التي أعطته إياها والدته، وكان يورط نفسه بمعارك في شوارع المدينة، بحسب ما نقل عنه أصدقاؤه، وعلى الرغم مما يمكن أن يسببه له هذا الطيش من أخطار على حياته المهنية، فقد كان غير مبال بالمخاطرة والخطر- وكان يذكر بكل فخر التقييم الضعيف لأدائه- غالبًا بسبب خدمته في الـ(كي جي بي)، التي وفرت له بعض الحماية من الشرطة العادية.

كان يكيِّف القوانين على هواه؛ لأنه يستطيع ذلك، ففي عيد الفصح في إحدى السنوات اصطحب سيرجي رولدغن، الموسيقي الكلاسيكي الذي أصبح صديقًا حميمًا له، اصطحبه في موكب ديني كُلف بمراقبته، ضمن مهمة مراقبة المؤمنين ومن كانوا مثل أمه، وقد أُعجب به صديقه حينما أخذه إلى مذبح الكنيسة، ودخل أمكنة حُظرت على الأشخاص العاديين، وهذا يشير إلى أن بوتين الصغير ليس لديه كثير من التوقير لحرمة الكنيسة، ووقتها قال لصديقه: «لا أحد يمكنه أن يذهب هناك، ولكننا نستطيع». كان متهورًا ومزاجيًّا، ففي طريق عودتهما من الكنيسة إلى البيت، صادفا- كما يذكر رولدغن- مجموعة من الطلاب ثمالى في محطة الحافلات، اقتربوا منهما يطلبون سيجارة، فنهرهم فلاديمير بوقاحة فجة، فضربه أحدهم، فألقى به بوتين على كتفه كأنه يخوض مباراة في نادي الجودو[15].

أخبر أصدقاءه بأنه كان ضابطًا في الشرطة في وزارة الداخلية، وقد صدَّقه- على ما يبدو- كثيرون منهم، لكن سرعان ما صَعب عليه إخفاء موقعه الفعلي، وعندما علم رولدغن، الذي التقى به في عام 1977م، بالحقيقة بات يشعر بالحذر منه؛ ذلك أنه كان قد سافر إلى الخارج لكونه موسيقيًّا، فلحقت به شرطة الـ(كي جي بي) السريَّة لتراقبه، متنكرين بقناع المسؤولين في وزارة الثقافة، وكان يشعر بالكره تجاه مرافقيه الفكريين ذوي العقول المؤدلجة، وتعلم ألا يتحدث بحرية أمامهم، ولكنه مع ذلك أصبح لاحقًا صديقًا لأحدهم. وقد استرضاه فلاديمير حين أقرَّ له بمهنته الحقيقية، لكن رولدغن شعر أنه من المحال تقبُّل ذلك. قال لصديقه مرة: «أنا أعزف التشيلو، ولا يمكنني أن كون جرَّاحًا، ولا أزال عازف تشيلو جيدًا، ولكن ما مهنتك أنت؟ أعرف أنك ضابط مخابرات، وأعرف ماذا يعني ذلك»، فأجابه

فلاديمير بشيء من الملاطفة: «أنا متخصص في العلاقات الإنسانية»، قالها على نحو مبهم، ثم رفض التحدث عن هذا الموضوع مطلقًا[16].

بحلول عام 1979م رُفِّع فلاديمير إلى رتبة نقيب، وكان قد أُرسل إلى موسكو للدراسة في الأكاديمية العليا لـ(كي جي بي) التي سميت باسم **فيليكس دزيرجينسكي**، مؤسس الشرطة السرية السوفييتية الذي بقي الشخصية الموقرة الآسرة في الـ(كي جي بي)، وكان أعد كرَّاسًا ضمنه الميزات الأساسية لضابط المخابرات: «قلب دافئ، وعقل بارد، وأيدٍ نظيفة»[17].

وأخيرًا، بدأ قائد المديرية الأولى الرئيسة باستمالته للخدمة في الخارج، ثم رجع بعد مدة قصيرة إلى لينينجراد، واستأنف مهمة مراقبة الأجانب، لكن بنجاح غير مؤكد، وقد أثنى أحد المشرفين على عمله ووصفه بأنه «مثمر للغاية»، غير أن أوليج كالوجين، كبير الموظفين في الـ(كي جي بي) في لينينجراد قال عنه في أثناء عمله هناك: إن الوكالة أخفقت في الكشف عن جاسوس أجنبي واحد في تلك المدينة المنفلتة الواسعة.

أخذت حياته المهنية بالترهل تمامًا كحقبة السلام النسبي والانفراج في الاتحاد السوفييتي الذي بدأ يواجه تزايدًا في الاضطرابات في الداخل والخارج، وكانت ضمنيًّا أولى علامات ضعف للاتحاد السوفييتي وانهياره المدوي. في ديسمبر/ كانون الأول من عام 1979م، غزا الاتحاد السوفييتي أفغانستان بعد انقلاب دموي دبرته مخابرات أندروبوف ونفذته قوات النخبة في الجيش، وكانوا يرتدون الزي الأفغاني. بدأ الغزو بعملية عبثية ترمي إلى دعم الحكومة الشيوعية في كابول، وأزهقت فيها حياة آلاف الجنود، الذين عادوا بصناديق الزنك، وعرفت باسمها المشفر (**شحن 200**) وظلت محاطة بالسرية.

وجاء انتخاب رونالد ريغان رئيسًا للولايات المتحدة في نوفمبر/تشرين الثاني 1980م ليزيد من توترات الحرب الباردة بين القوتين العظميين أكثر من أي وقت مضى، حتى كانت أقرب إلى المواجهة، وسرعان ما أصبح هاجس الكرملين والـ (كي جي بي) ما يفكر فيه القادة السوفييت، من أن يتبنى ريغان توجيه ضربة نووية استباقية ضد الاتحاد السوفييتي.

في مؤتمر مايو/أيار 1981م، ندد ليونيد بريجنيف برونالد ريغان لكونه يمثل تهديدًا للسلام العالمي، في حين أعلن أندروبوف أنه من الآن فصاعدًا ستكون الأولوية المطلقة لأجهزة الأمن هي الكشف عن أدلة على خطة ريغان بتدمير البلاد[18]. كانت تلك عملية حملت اسم **RYAN**، حيث استعد فيها الروس لـ(هجوم صاروخي نووي)، وأصبحت الشغل الاستخباراتي الشاغل لمكاتب الـ(كي جي بي) في جميع أنحاء العالم، واستمر هاجس جنون العظمة حتى نهاية العقد، وجاء فلاديمير بوتين على الفور ليمارس دورًا مهمًّا فيه.

في عام 1980م، بعد عودته إلى لينينجراد، شهدت الحياة الشخصية والوظيفية لفلاديمير منعطفًا مهمًّا؛ فقد ظل عازبًا حتى أصبح في الثامنة والعشرين، خلافًا للعادة في المجتمع السوفييتي، وكانت العزوبية لا تناسب شخصًا محافظًا في كي جي بي؛ فقد رفضت المديرية الأولى الرئيسة إرسال عازبين إلى الخارج، خوفًا من الوقوع في علاقات جنسية خارج إطار الزواج تعرضهم لخطر الفضيحة والابتزاز[19]. وكان فلاديمير جذابًا؛ بعينين زرقاوين داكنتين، ورشيقًا، وسريع البديهة، وكان يسخر من ذلك عندما يتعلق الأمر بالنساء، على الرغم من أنه بدا متحفظًا عاطفيًّا، وكان يشعر بالراحة مع دائرة الأصدقاء الذكور من سنه ومن الـ(كي جي بي). قال رولدغن: «كثيرًا ما كنت أقول له إنه فظيع في حواره»[20].

في أواخر السنوات التي قضاها في الجامعة، أقام فلاديمير أول علاقة جادة له مع طالبة في كلية الطب، وكان اسمها **ليودميلا كامارينا**، التي كان شقيقها فيكتور كامارينا صديقًا مقربًا له، وكانت- على وفق ما وصفها رولدغن- جميلة وعنيدة، لا تسأل كيف يشعر فلاديمير حتى حين يكون مريضًا. التقيا في المنزل الريفي لعائلته في توسنو، واتفقا على الزواج حين التخرج وانطلاق مسيرته المهنية. وفي عام 1979م أعلنا خطوبتهما، وتقدما بطلب للحصول على رخصة الزواج، واشترى لهما ذووهما الخواتم واللباس وفستان الزفاف، ثم فجأة قطع العلاقة معها، وقرر أن «من الأفضل أن أعاني بمفردي بدلًا من أن نعاني نحن الاثنان في وقت لاحق»، لكنه لم يوضح ما حدث بينهما بتاتًا، ولم يوضح حتى لرولدغن، إلا أنه ألمح فقط إلى

(بعض المكائد)، ولم تنشأ عداوة بينهما؛ إذ إنه أبقى على صداقة شقيقها فيكتور سنوات عديدة. وهكذا اعتاد فلاديمير على حياة العزوبية، بل ربما كان يفضلها، كابن مدلل لا يزال يعيش في المنزل، وافترض أنه لن يتزوج مُطلقًا[21].

لكنه، في مارس/آذار 1980م، التقى ليودميلا أخرى؛ ليودميلا شكربنيفا، وهي مضيفة زرقاء العينين، تعمل في إيروفلوت، وتعيش في كالينينجراد، المقاطعة البروسية السابقة التي استولى عليها الاتحاد السوفييتي بعد هزيمة النازية، وكانت في الثانية والعشرين، شعرها الأشقر يتطاير لاهثًا خلف كتفيها، وقد زارت هي ومضيفة أخرى، تدعى غالينا، لينينجراد ثلاثة أيام.

في الليلة الأولى في المدينة حرصت على زيارة أكبر عدد من المعالم السياحية للمدينة، وذهبت هي وغالينا وأندريه إلى مسرح لينسوفيت ليشاهدوا عرضًا قدمه الممثل الساخر العجوز أركادي رايكن، فدعت غالينا ليودميلا، ودعا أندريه صديقه فلاديمير. لم تعجب ليودميلا في البداية بفلاديمير؛ بسبب ملابسه الرثة وسلوكه غير الجذَّاب، حتى إنها لو التقت به في الشارع- كما قالت- «فلن توليه أي اهتمام»[22]. وخلال الاستراحة تجرأت وطلبت منه أن يساعدهم في الحصول على تذاكر للأمسية الموسيقية في الليلة التالية، فاستجاب لها، وجلب لهم التذاكر، وفي نهاية الليلة الثانية أعطاها رقم هاتفه. صُدم أندريه، وسأل صديقه في وقت لاحق: «أأنت مجنون؟»، ذلك أنه لم يسبق له أن أعطى رقم هاتفه شخصًا لا يعرفه جيدًا[23].

التقيا مرة أخرى في الليلة الثالثة، وعندما عادت إلى كالينينجراد اتصلت به على ذلك الرقم.

عندما سافرت مرة أخرى إلى لينينجراد في يوليو/تموز، بدأت العلاقة بينهما، وقالت مازحة عن ذلك: إن الفتيات الأخريات يأخذن الحافلة أو الباص إلى مواعيدهن، أما هي فتستقل الطائرة لموعدها[24]. ثم عزمت على الانتقال إلى لينينجراد. وحثها فلاديمير على

العودة إلى الجامعة- وكانت تسربت من الكلية التقنية لتصبح مضيفة- فالتحقت بقسم فقه اللغة في جامعة لينينجراد التي تخرج هو فيها. على إثر مشقة تلك الانتقالات والدراسة تمزقت العلاقة بينهما في البداية، فانقطعت عن الدراسة إلى أن سافر إلى كالينينجراد حيث أقنعها بالعودة. وفي أكتوبر/تشرين الأول استقرت في شقة مشتركة تعيش فيها امرأة التحق ابنها بخدمة العلم[25]، وحينها أثبت فلاديمير اهتمامه بها، وغيرة المحب لها، وشعرت أنه كان يراقبها دائمًا، ويختبرها، ويكوِّن رأيه عنها؛ فسوف يتخذ قراره- سواء في الذهاب إلى التزلج، مثلًا، أو في اتباعها دورة في الطباعة- دون أن يترك لها أي مجال للنقاش، وكانت- خلافًا ليودميلا الأولى- أكثر طواعية. وعندما التقت بها أم فلاديمير لم تكترث بها، والأسوأ من ذلك أنها أخبرته بذلك، وكان لدى ابنها- حقًّا- ليودميلا أخرى، وقالت عنها ماريا إنها «فتاة جيدة».

لم تكن ليودميلا تعرف أن فلاديمير يعمل لحساب المخابرات الروسية (كي جي بي)، وكان قد أخبرها، أيضًا، أنه يعمل في فرع التحقيقات الجنائية في وزارة الداخلية؛ وهو الغطاء المشترك لعملاء المخابرات، وقد صدرت له بطاقة مزورة بذلك[26]. وكانت كلما سألته عن عمله خلال اليوم يتهرب من أسئلتها مازحًا؛ فقد قال لها ذات مرة: «قبل الغداء ألقينا القبض عليهم»، وكأنما أمضى اليوم هو وزملاؤه بالصيد، «وبعد الغداء أفرجنا عنهم»[27]. لم تكن حتى عام 1981م- وكان قد مضى على تعارفهما سنة ونصف سنة- قد عرفت وظيفته الحقيقية؛ ولكنها عرفت ذلك من زوجة صديق له. شعرت برعشة الدهشة والفخر، وعلى عكس رولدغن، لم يكن لديها مسوغ للخوف من الـ(كي جي بي)، أو من هذا الشاب؛ وبدت قلة كلامه، اليوم، مفهومة، وبات واضحًا ما كان غامضًا.

كان إخبار صديقتها لها بالخبر أشبه بالبشرى، ولكن كان أيضًا شيئًا مقلقًا؛ فأن تكون معه يعني أنها ستقبل أن يكون جزءٌ منه خارج قبضتها[28]. وقد خُيِّل إليها أن المرأة التي باحت لها بسره قد تكون مكلفة بذلك، لكنها لم تكن متأكدة. وحينها تذكرت اللقاء الاستثنائي الذي حدث قبل بضعة شهور.

كانت وافقت وقتها على مهاتفة بوتين في ذلك المساء في الساعة السابعة، كعادتها على الغالب؛ لأن شقتها المشتركة ليس فيها هاتف، فذهبت إلى هاتف عمومي في فناء قريب، وبحلول الظلام اتصلت برقم هاتفه، لكنه لم يرد، وتخلت عن معاودة الاتصال؛ لعلمها بميله إلى العمل في هذا الوقت، وعند مغادرتها اقترب شاب منها، في مكان فارغ وهادئ، فقررت العودة إلى شقتها من خلال مدخل الساحة ذي الأعمدة، لكنه ظل يتابعها، وكلما سارعت من وتيرة مشيها سارع للحاق بها، «أيتها السيدة الشابة، من فضلك، أنا لا أفعل أي شيء سيئ؛ أريد فقط أن أتحدث إليك لثانيتين فقط»، ولأنه بدا صادقًا يتحدث من كل قلبه توقفت. «أيتها السيدة الشابة، إنها مسألة مصير. إنها مصير! كيف لي أن ألتقي بك؟»، «ما الذي تتحدث عنه؟»، أجابته بالرفض. «ليس هذا مصيرًا»، «حسنًا، من فضلك، أتوسل إليك أن تعطيني رقم هاتفك»، «ليس لدي هاتف». أجابها: «إذن اكتبي رقم هاتفي». وكان يقدِّم رقمه بنفس الطريقة التي كان يقدم بها بوتين في الموعد الثاني لهما، فقالت له وهي تتركه وتمضي: «لا حاجة لي برقمك»[29].

تداعت إلى ذهنها القصة شبه المنسية بلحظة محيرة خاطفة؛ أكانت الـ(كي جي بي)- أو فلاديمير- يختبرونها في شارع مظلم هل هي من صنف النساء اللواتي يُقِمن علاقة مع أي رجل يصادفنه في الشارع، وهو ما قد يثير غيرة الزوج، ويعرضها أو يعرضه للابتزاز أو التجسس المضاد؟ أم أنه كان مجرد شاب متهور يأمل في الحصول على معرفتها؟ لم تكن متأكدة، لكنها فهمت اليوم نوع الحياة التي ستعيشها مع هذا الرجل. كانت متيقنة أن بعضهم قد يخاف من اختبار كهذا، إلا أنه من السخف أن ينغص عليها، فليس لديها ما تخفيه، بعد كل شيء. لم تكن مستاءة من عمله؛ «فالعمل هو العمل»، كما قالت، ولكن عندما سألته عن اللقاء أكثر من مرة، رفض الإجابة، وهذا ما أزعجها؛ فهي تعرف أنه لن يقول لها شيئًا عن العالم الآخر الذي يعمل فيه، ولن يريح بالها بشرح سبب عودته إلى البيت في منتصف الليل بدلًا من التاسعة مساء، وهو ما يقلقها ويدخلها في نوبة غضب، ولكن عليها الانتظار دائمًا وحيدة لا تعرف شيئًا. لا بد أن يترك عمله في الـ(كي جي بي) بصماته عليها؛ فلا يمكنها

الحديث عن وظيفته، أو أن تتحدث للناس عن حياتها أو حياتهما معًا؛ من ثم فقد كانت تدرك أن الزواج من بوتين سيكون بمنزلة (حظر للخاص) في حياتها، وتعرف أنها وقعت في غرام شخص يحس أنه رجل قمعي لكن ليس بهذه السرعة[30].

فلاديمير يمكن أن يكون جريئًا ومتهورًا، ولكنه متأنٍ في علاقته بالجنس اللطيف، وقد استخدم منصبه- وراتبه- للسفر معها؛ فذهبا مرتين إلى البحر الأسود، الذي أحبه منذ رحلته عندما كان طالبا شابًّا يحدق في النجوم. وذات مرة توجها مع أصدقاء لهما بالسيارة إلى سوتشي، منتجع على مسافة أكثر من ألف ميل إلى الجنوب، ومكثوا هناك في شقة من غرفتين مخصصة لحراس بوشاروف روشي، وقصر ساحل البحر الذي بني في الخمسينيات بتوجيه من نيكيتا خروتشوف للنخبة السوفييتية، وأصبح في يوم ما منتجعًا لرؤساء روسيا الجديدة، كما استخدمه ليونيد بريجنيف في السنوات الأخيرة الفاترة من حكمه. ومن شرفة غرفتهما كان يمكنهما أن يشاهدا الشاطئ، ولكن الدخول إليه كان ممنوعًا.

في عام 1981م عادا إلى البحر الأسود، وهذه المرة بقيا أسبوعين في سوداك في شبه جزيرة القرم، وهي الرحلة الأولى التي يخرجان فيها وحدهما[31]، ومع ذلك كادت أن تكون زوبعة غرامية. وحين طلب منها الزواج في شهر أبريل/نيسان من عام 1983م، ظنت أنه يريد فسخ العلاقة؛ فقد قال لها في شقته: «بعد ثلاث سنوات ونصف يمكنك أن تحسمي أمرك»، فقالت له مترددة وخائفة من العواقب: «نعم؛ لقد حسمتُ أمري»، بدا مشككًا وأجابها: «نعم؟»، ثم أضاف: «حسنًا إذًا، إذا كان الأمر كذلك فأنا أحبك، وأقترح عليك الزواج»[32].

واستقر بالفعل على تاريخ محدد هو: 28 يوليو/تموز، وبعد ثلاثة أشهر فقط، أقاما حفلًا مدنيًّا لا دينيًّا، إذ لا يسمح به لضابط في الـ(كي جي بي)، وبعد ذلك أقيمت حفلتا زفاف. حضر الحفل اثنان وعشرون صديقًا وقريبًا لأول مرة في مطعم عائم يرسو على جسر بجانب جامعة لينينجراد الحكومية. وفي الليلة الثانية أقاما حفلًا آخر حضره أصدقاء آخرون، وبمزيد من الأجواء الخاصة، في قاعة الاحتفالات في فندق موسكو. بالنسبة إلى ليودميلا،

كانت الحفلة الأولى حارة وممتعة، أما الثانية فكانت أكثر احتفالية، ولطيفة بما فيه الكفاية، ولكن (مختلفة قليلًا)، وقد حضر الحفلة الثانية زملاء فلاديمير من الـ(كي جي بي) الذين لم يخاطروا بعرض خصوصيتهم، حتى للأقارب والأصدقاء المقربين لأحد رفاقهم.

أما شهر العسل فقد أمضياه في أوكرانيا، في البداية انطلقا بسيارتهما إلى كييف، حيث التقيا الأصدقاء الذين سافروا معهم، وتقاسموا معهما الغرفة، وطافوا أنحاء مولدوفا، ثم جالوا لفيف في غرب أوكرانيا، ونيكولاييف، وأخيرًا شبه جزيرة القرم، ثم أقاما في يالطا التي تجمع كل معالم الإمبراطورية السوفييتية العظمى.

في يالطا، كان للعروسين غرفة خاصة بهما، فمكثا اثني عشر يومًا، يقضيان أوقاتهما في السباحة وحمامات الشمس على الشاطئ الصخري[33]، وبدت شبه جزيرة القرم مكانًا مقدسًا وسحريًّا لهما، ثم عادا مرورًا بموسكو لكي يتمكن من المرور بمقر الـ(كي جي بي)- المركز، كما هو معروف- وبعد ذلك انتقلا إلى شقة والديه؛ ذات غرفتي النوم في ستاشك لين.

كان في الثلاثين من عمره، وهي في الخامسة والعشرين، واستقرا معًا بحياة زوجية سعيدة، وإن كانت مقيدة.

أحد زملائه، إيجور أنتونوف، كان يعتقد أن فلاديمير تزوج للمضي قدمًا في حياته المهنية، مدركًا أن العزوبية تحد من تطوره المهني[34]، ومن غير شك أنه فكر في كل ذلك بعناية، وقد شهدت سيرته المهنية انفراجًا بعد ذلك بعام؛ إذ منحته الـ(كي جي بي) ترقية إلى رائد بعد تسع سنوات من الخدمة، وأرسلته للدراسة في موسكو في كلية النخبة في المخابرات الخارجية، ومعهد الراية الحمراء الذي أُسس عام 1938م، وكان معسكرًا للجواسيس الخارجيين في الاتحاد السوفييتي، ولم يكن للمعهد خصوصية فكرية وحسب، بل كان يمارس تمييزًا في المعايير العرقية والإثنية؛ فقد منع منه اليهود، كما منع منه التتار والقرم والشيشان، والكالميك، وكانت ممارسة الشعائر الدينية فيه من أي نوع ممنوعة. وكان دخوله ربما نتيجة التقرير الذي قدمته وكالة الـ(كي جي بي) عن عمله الإيجابي.

بحلول عقد الثمانينيات، بدأت المديرية الأولى الرئيسة تشتكي من كثرة الطلاب الذين كانوا «أطفالًا مدللين لآبائهم المتميزين» والذين استخدموا نفوذهم واتصالاتهم في موسكو لدخول أبنائهم فيها، في حين أنها كانت تريد- بدلًا من ذلك- مرشحين أقوياء لديهم الكفاءة لتعلم اللغات الأجنبية، والتفاني المطلق لقضية الاتحاد السوفييتي. حاولت المديرية توسيع التجنيد عن طريق زيادة نسبة الطلبة القادمين من المحافظات، فطُلب من المقرات الإقليمية ترشيح الضباط الشباب[35]، فأرسلت لينينجراد فلاديمير بوتين.

المعهد اليوم يحمل اسمه بعد أندروبوف؛ الذي رَأَس جهاز الـ(كي جي بي) مدة طويلة، ثم تولى منصب الأمين العام للحزب الشيوعي بعد وفاة بريجنيف عام 1982م، وبهذا ارتفعت آمال أولئك الذين يريدون تحديث الدولة تحت القبضة الحديدية للأجهزة الأمنية، ولكن أندروبوف استمر رئيسًا لمجلس السوفييت الأعلى خمسة عشر شهرًا فقط، قبل وفاته فجأة في فبراير/شباط 1984م، وكانت بداية سلسلة صاخبة من تسلُّم القادة السوفييت كبار السن؛ وحلَّ قسطنطين تشيرنينكو محل أندروبوف لأشهر فقط، قبل أن يبدأ فلاديمير الدوام في معهد الراية الحمراء، وبقي عامًا قبل أن يموت في مارس/آذار 1985م.

الأمة السوفييتية العظيمة بدت فجأة غير قادرة على توليد قادة جدد، وفي مرحلة مثقلة بالركود الاقتصادي والسياسي الذي بدا متخلفًا أكثر من أي وقت مضى عن الغرب، وعن (العدو الرئيس) الولايات المتحدة؛ فالحرب السوفييتية في أفغانستان أسقطته في مستنقع، وقد أبدى العاملون في دوائر فلاديمير الاستخباراتية استعدادهم المطلق لمناقشة الحقائق بشأن هذا الموضوع الذي لم يسبق أن تحدث عنه أحد علانية، وقد ذُهل مما كُشف عنه، بعد أن كان يعتقد بالغريزة بعدالة التدخل[36].

كان المعهد منشأة سرية تقبع في غابة خارج موسكو، حيث لا يزال قائمًا حتى اليوم لكن تحت اسم جديد: **أكاديمية الاستخبارات الخارجية**، ويقدم الدورات التي تستغرق من سنة

إلى ثلاث سنوات؛ تبعًا للحالة التعليمية للمتدربين، وخبرتهم، والمهمة التي يمكن أن توكل إليهم[37].

ليودميلا اليوم حامل، بقيت في لينينجراد، تعيش مع والديه، وكان فلاديمير حينها قد تعلم حرفة التجسس؛ كيفية تجنيد العملاء، والتواصل في التعليمات البرمجية، والاضطلاع بأعمال المراقبة، وكيف تضلل عنصرًا يتعقب شخصًا ما، وكيف تستخدم صناديق البريد الميت، وفوق هذا كله تعلم فن الاختباء الذكي.

في أثناء التدريب اعتمد الطلاب أسماء حركية، مستمدة من الحرف الأول من أسمائهم، وأصبح بوتين الرفيق بلاتوف؛ لحماية هويته الحقيقية حتى من الطلاب الآخرين. وكانوا يرتدون الملابس المدنية، لا الزي الرسمي، ويحضِّرون لمستقبلهم بالتظاهر أنهم صحفيون ودبلوماسيون، أو مندوبون تجاريون في البلدان التي يتوقع أن يعرفوها من كثب، قبل زيارتهم لها.

ظهر فلاديمير في سبتمبر/أيلول 1984م مرتديًا بذلة جديدة من ثلاث قطع، بغية تحقيق أكبر قدر من الثقة، على الرغم من أنه كان يومًا دافئًا، فقال المدرب العقيد ميخائيل فرولوف للطلاب الآخرين: «انظروا إلى الرفيق بلاتوف، الآن!»، مستشهدًا بهذا الشاب النحيل نموذجًا[38].

أخيرًا، بعد ما يقارب العقد من الملل في مراقبة الأجانب والمعارضين في لينينجراد، تعلم الحرفة التي كان يتصورها في شبابه. كانت الأقسام الثلاثة الرئيسة في المعهد في ذلك الوقت يرأسها قدامى المحاربين من (العصر الذهبي) للتجسس في الـ(كي جي بي)؛ في سنوات ما قبل الحرب العالمية الثانية وفي أثنائها وبعدها: يوري مودين في الذكاء السياسي، وإيفان شيشكين في مكافحة التجسس، وفلاديمير.ب أركوفسكي في الاستخبارات العلمية والتقنية، وجاءت شهرتهم من عملهم جواسيسَ في لندن، وكان مودين آخر قائد للمجموعة التي أصبحت تعرف باسم المجموعة (**الخامسة الرائعة**)، وهي من خريجي كامبريدج

الشباب، ومن بينهم كيم فيلبي، الذي جُنِّد خلال عقد الثلاثينيات عميلًا للاتحاد السوفييتي، حتى وصل إلى أعلى المستويات في السلطة البريطانية، ومع أن تلك العملية اكتشفت منذ مدة طويلة، فإنها ظلت «نموذجًا لضباط المخابرات الصغار» في المعهد[39]، وكان الرفيق بلاتوف يتعلم من نجوم كي جي بي.

في 28 أبريل/نيسان 1985م ولدت ليودميلا ابنتها البكر وهي لا تزال في طور استكمال دراستها الجامعية، وكانت تريد أن تسميها ناتاشا، ولكن فلاديمير كان قد اتخذ قراره سابقًا وسماها ماريا، أو ماشا، على اسم والدته. وحين ولدت ابنته كان غائبًا، ولكنه حصل على إجازة- بعد أن خرجت الأم وطفلتها من المستشفى- لزيارة عائلته الجديدة والاحتفال معها، ومعهم سيرجي رولدغن، الذي أصبح عرابًا لماريا، في المنزل الريفي لوالد رولدغن قرب فيبورغ، على الحدود الفنلندية. كانت ليودميلا- من غير أن تدري- هي نفسها تخضع للفحص والتدقيق في خلفيتها وصحتها ومزاجها، علمت بذلك فقط حين استدعاها مكتب إدارة الجامعة، وأُبلغت أنها قد بُرِّئت من أي شبهة[40].

أصبح فلاديمير اليوم ربًّا لعائلة في مرحلة حرجة وأكثر أهمية في حياته، فآماله في السفر إلى الخارج، والانتقال إلى عمل النخبة في الاستخبارات الخارجية، كانت تعتمد على نجاحه في معهد الراية الحمراء، وهذا أمر شائك بلا شك. وقد بدا من التركيز على تعلمه اللغة الألمانية أنه سيخدم في بلد ناطق باللغة الألمانية، والسؤال الوحيد هو: هل سيعيّن في الغرب الرأسمالي- أي في ألمانيا الغربية أو النمسا أو سويسرا- أو في دول أوروبا الشرقية التي تدور في فلك الاتحاد السوفييتي، مثل جمهورية ألمانيا الديموقراطية؟ فالخدمة السرية في الغرب تتطلب عامًا آخر أو عامين في المعهد، مع تدريب أعمق وأعمق في العادات والتقاليد المحلية- التي يسقط ذوو الأصول الأجنبية في كثير من الأحيان في براثنها- والجوانب الأساسية للحياة الرأسمالية، كالرهون العقارية التي قد تخون رجل الاستخبارات السوفييتي[41]. ادعى فلاديمير في وقت لاحق أنه كان يفضل الخدمة في ألمانيا الشرقية، ولكن القرار في هذا الخيار ليس له، إذ تتخذ لجنة التخرج في المعهد قرارات التعيين على حسب

الأداء والسلوك الشخصي. وعلى الرغم من كل الرهانات، أدخله سلوكه في أخطار كثيرة؛ كان قادرًا على العودة إلى لينينجراد مددًا قصيرة، وفي إحدى المرات دخل في عراك، خلال مواجهة على المترو مع مجموعة من مثيري الشغب، هذا ما رواه لسيرجي رولدغن، وفي هذه المرة- كما قال- عانى بقدر معاناة الطرف الآخر في تلك المواجهة، وكسرت ذراعه في المعركة. أخبر رولدغن أنه ستكون هناك عواقب هذه المرة، وحقًّا وُجِّه له توبيخ، مع أنه لم يفصح عن العقوبة لصديقه. قال رولدغن: «لديه نقطة ضعف وهي لا تخدم المهام الخاصة؛ فهو مُخاطر وينبغي للمرء أن يكون أكثر حذرًا، وهو ليس كذلك»[42].

كان تقييمه في نهاية سنة التدريب دون المتوسط، فليس عنده طموح كبير، لكن العقيد فرولوف لاحظ عددًا من الخصائص السلبية لديه؛ منها أنه كان «انطوائيًّا وصموتًا»، في حين أنه «حاد الذكاء»، ويمتلك أيضًا «ميلًا أكاديميًّا معينًا»، كانت تلك طريقة مهذبة لوصف أسلوبه المتحذلق[43]، وليس لديه صلات عائلية أو خلفية تمهد له الطريق لتسنَد إليه وظيفة مرموقة.

أسهمت المعركة على المترو في لينينجراد على نحو شبه مؤكد في نهاية مفاجئة لدراسته في معهد الراية الحمراء؛ فبدلًا من الاستمرار عامين آخرين تؤهله لصفوف النخبة في التجسس الاحترافي، غادر في نهاية سنته الأولى. وعندما تسلم مهمته، لم تكن لألمانيا الغربية، ولكن إلى الشرقية، ولم تكن حتى إلى برلين، مركز التجسس في الحرب الباردة منذ هزيمة النازيين، وإنما لدريسدن، عاصمة مقاطعة سكسونيا، بالقرب من الحدود مع تشيكوسلوفاكيا. ولأول مرة يحصل على جواز سفر أجنبي، وكان في الثالثة والثلاثين من عمره تقريبًا، ولم يكن قد غادر الاتحاد السوفييتي في حياته من قبل.